البلغار. كما استرجع عدداً من جزر الارخبيل من حكم البنادقة (٥). لكن اعداءه الغربيين تحالفوا عليه بعدما اكتشفوا امره وسببوا له متاعب كثيرة (٦). الا ان مهارة ميخائيل الفذة في الدبلوماسية حالت دون نجاح ذلك التحالف الغربي ضد امبراطوريته. فقد تمكن من عقد تحالف مع البابا جريجوري العاشر عام ١٢٧٤ م اعترف بتبعية الكنيسة الارثودكسية للبابوية. وفي مقابل ذلك حصل ميخائيل الثامن على اعتراف البابا باحقيته في حكم القسطنطينية، وان تصبح له حرية التصرف في الشرق حتى ولو كان ذلك على حساب الامارات الصليبية (٧).

اما في الداخل فقد قام بترميم احياء العاصمة التي هدمت فعاد اليها السكان ونشطت الحياة. كما تعهد اسوار المدينة بالاصلاح ليعيد اليها حصانتها. ولذلك اعتبر المؤسس الثاني للعاصمة القسطنطينية (٨). ورغم هذا كله فقد كانت الادارة المالية والحكومية قد اختلت تماماً وكان اصلاحها يحتاج الى جهد كبير (٩).

وعليه يمكن القول ان الامبراطور ميخائيل قد اعاد الامبراطورية الى ماكانت عليه تقريباً من الناحية الاسمية، ولكنه لم ينجح في اعادة فعاليتها وقوتها من جديد. ففي الجانب الاقتصادي على سبيل المثال منيت سياسته بفشل ذريع. فقد أحتل الجنويون المقام التجاري الاول في الامبراطورية. اذ امر ميخائيل الثامن بالغاء الضرائب المفروضة على بضائعهم وسمح لهم باقامة المصانع والمخازن والقلاع العسكرية في مختلف اجزاء امبراطوريته لغايات سياسية. وقد اثار ذلك حكومة البندقية وخاصة عندما خسرت كافة امتيازاتها التجارية في الاراضي المقدسة عند سقوط عكا اخر المعاقل الصليبية عام ١٢٩١ م. ان الاحتكارات الاقتصادية والحروب بين الجنويين والبنادقة في الاراضي والمياه البيزنطينية والحروب الاهلية والتخريبات التي انزلتها الفرق الاجيرة في الارياف والمدن وغارات الألبان والصرب والبلغار على الجهات البلقانية والاختلافات الطائفية ادت بمجموعها الى تعميق الفوارق بين الطبقات والى اشتداد التعسف الاقطاعي وكان من نتيجة ذلك صراع حاد بين الفلاحين والاقطاعيين في

(5) Ibid, p. 38.

(6) Oman, op. cit, p. 314.

(7) Baynes and Moss, op. cit, pp. 38.39.

(8) Finlay, History of the Bytantine, P. 434.

(9) Oman, Op. Cit, P. 310.

الأرياف يقابله صراع اخر في المدن بين الارستقراطية والفئات الشعبية. ويمكن ملاحظة التدهور الاقتصادي في هذه الفترة من انخفاض قيمة العملة الذهبية المسماة Bezant للتلاعب في نسبة الذهب المسبوك (١٠). وعلى الرغم من ان خليفة ميخائيل ابنه الامبراطور أندرونيقوس الثاني (١٢٨٢ ــ ١٣٢٨ م) كان على حظ وافر من التعليم وخطيباً مرموقاً، وصديقاً للادباء الا انه كان لايصلح للاضطلاع بمسؤلية الحكم في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ الامبراطورية (١١). وخلال فترة حكمه تجدد الصراع بينه وبين رجال الدين مما اعطى الفرصة للاتراك السلاجقة التوغل غرباً في آسيا الصغرى حتى وصلوا الى الساحل الغربي عند أزمير وأفسوس، وما ان حل عام ١٣٢٥ م حتى أنحصرت املاك الامبراطورية في اسيا الصغرى في شريط ساحلي ضيق يمتد من الدردنيل جنوباً حتى البسفور شمالاً (١٢).

والى جانب الصراع مع الاتراك السلاجقة نشب صراع اخر بين الامبراطور وحفيده الذي يحمل اسمه. فقد اراد اندرونيقوس حرمان الحفيد اندرونيقوس من حقه في وراثة العرش. وانقسم الجيش الى فريقين كل منهما يحارب لصالح جانب من الجانبين. وانتهى الامر بعد حروب طويلة الى سيطرة الحفيد على الموقف وابعاد الجد عن السلطة. وظل الحال كذلك حتى مات اندرونيقوس الثاني عام ١٣٢٨ م (١٣). وترتب على هذا الصراع الطويل نتائج سيئة في الداخل والخارج. فقد فقدت الامبراطورية الكثير من اراضيها.

تولى الحفيد العرش الامبراطوري باسم اندرونيقوس الثالث (١٣٢٨ ــ ١٣٤١ م) وحاول منذ توليته العرش العمل على النهوض بالدولة. الا ان سياسته الهوجاء جاءت بعكس ذلك، ويرجع المؤرخ فينلي ذلك الى اعتلال صحته (١٤). فقد خاض حروباً طويلة وعنيفة مع العرب لم تأت بنتائج تذكر بل كلفت خزينة الدولة اموالاً طائلة كما فقدت الامبراطورية حلفاءها البلغار نتيجة

---

(١٠) انظر اليوسف ــ المصدر السابق ــ ص ١٧٤.

(11) Baynes and Moss, op. cit, p. 41.

(12) Finlay, History of the Byzantine, p. 474.

(13) Ibid, p. 520.

(14) Finlay, History of the Byzantine, p. 522.